مجهود الجزائريين الاقتصادي والمالي خلال الحرب العالمية الاولى

ا د. محمد مكحلي
جامعة سيدي بلعباس

تقديم

اندلعت الحرب العالمية الأول والجزائر في وضعية متدهورة جدا. وقد تحول الجزائريون إلى دروع بشرية تصد بهم فرنسا نيران ألألمان خصوصا وأنها كانت تشكو من نقص ديموغرافي منذ بداية القرن العشرين. , فأسرعت إلى تجنيد أكثر من ثلث المليون شاب جزائري وأرسلتهم للدفاع عن أراضيها والقيام بالأعمال والأشغال التي تتطلبها مصانعها ,ومزارعها.

لم يقتصر المجهود الحربي الجزائري على الجانب البشري فقط, بل عانت الجزائر أيضا في المجال الاقتصادي فأنهك بذلك المجتمع وأدى إلى تقهقره أكثر[1].

عرف الجزائريون كيف يصمدون في وجه غطرسة فرنسا وتسلطها مع مرور الزمن فقدت اشكال النضال التقليدية مقاومات شعبية ، ثورات ، انتفاضات، مفعولها وأصبح الشعب الجزائري في حالة دفاع بسبب اختلال موازين القوى فظهرت مبادرات في قالب جديد حملت معها الإشارات الأولى للتعبير السياسي بنزعة مطلبية.[2]

مع بداية الحرب العالمية الأولى اتسعت الهوة بين فرنسا والشعب ألجزائري مكنت معها الحرب الجزائريين من تشكيل أحزاب سياسية، شهدت تطورات متوازنة نتيجة لردود الأفعال الفردية ، والجماعية للشعب الجزائري أثرت الحرب العالمية الأولى على الجزائريين في عديد الميادين , ألاقتصادية والمالية , والاجتماعية بفعل مساهمتهم ألبشرية والمادية فيها جسدها الارتباط الاقتصادي المثين ، بين فرنسا والجزائر بحيث ان كل ما كان ينتج في الجزائر كان يصدر الى فرنسا ،من ذلك يمكن وصف حالة الجزائر انه اصابها اعصار وان الحرب اثرت تأثيرا سلبيا على الجزائريين جعلتهم يشعرون بحقيقة معضلتهم مع المستعمر الفرنسي ,وضرورة التأهب لمواجهته عاجلا أم آجلا .[3]

أولا : التجنيد الإجباري :

ولّدت النزعة الاستعمارية التي طبعت السياسة الفرنسية خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين لدي السلطات الفرنسية الحاجة إلى توفير قوة عسكرية يقع على عاتقها أداء المهام التي تتطلبها المغامرات الاستعمارية داخل إفريقيا وخارجها . وقد ظهر الحديث مبكرا عن مشاريع مختلفة تقضي باللجوء إلى الموارد البشرية التي تمتلكها المستعمرات من أهمها الجزائر. فظهر قانون التجنيد الاجباري .[4]

لم تكن طرق التجنيد وأساليبه إجبارية في بداية الأمر ، بل اعتمدت على التطوع مقابل أجرة ضئيلة ، غير أنها كانت مغرية بالنسبة للشباب الجزائري المجرد من مصادر ووسائل العيش وأشرك الجزائريون في عدة حروب استعمارية فرنسية ، كحرب القرم 1854 وحرب المكسيك 1860 ، والحرب ضد بروسيا 1870 ، والحملة لاحتلال تونس 1881 ، وحرب مدغشقر 1889 ـ 1900.

ومع ظهور بوادر الأزمة المغربية في بداية القرن العشرين واستعدادات الأوربيين للحرب الداخلية ، تزايدت حاجة فرنسا إلى تدعيم قوتها العسكرية باللجوء إلى التجنيد الإجباري للشباب الجزائري ، على الرغم من معارضة الجزائريين والمعمرين على حد سواء. لذلك عينت الحكومة الفرنسية لجنة للتحقيق في إمكانية تطبيق الخدمة العسكرية الإجبارية على الجزائريين عام 1907 ، وقد تبلورت نتائج عملها في مرسوم 17 جويلية 1908 القاضي بإحصاء الشبان الجزائري البالغين 18 سنة.[5]

بقيت مسألة التجنيد بدون تجسيد على أرض الواقع بسبب المعارضة الشديدة للمستوطنين الذين لمسوا في المشروع خطرا على الوجود الاستعماري ، ومعارضة الجزائريين لاعتبارات سياسية ودينية.غير أن تأزم وتوتر الأجواء السياسية الدولية عجل بصدور مرسوم 3 فبراير 1912 حول تجنيد الجزائريين لثلاث سنوات مع البقاء في فرق الاحتياط لمدة سبع سنوات بعد الانتهاء من الخدمة. وجاء هذا المرسوم كتكملة للتجنيد عن طريق التطوع الذي لم يعط نتائج كبيرة ،ثم صدر مرسوم 19 سبتمبر 1913 حول العقوبات الخاصة بقانون التجنيد الإجباري.

توسعت عملية التجنيد الإجباري في سنوات الحرب لتشمل الآلاف من الشباب المجند كيد عاملة مستمرة لخدمة الاقتصاد الفرنسي و دعم المجهود الحربي ، وعليه تمكنت فرنسا من تجاوز محنة الحرب العالمية الأولى بفضل تضحيات عشرات الآلاف من الشباب الجزائريين في سبيل تحرير فرنسا من الاحتلال الألماني . و لئن كانت الإحصائيات تختلف من مصدر إلى آخر و من طرف إلى آخر ، إلى أنها تجمع على أن نسبة القتلى من الجزائريين في

الحرب الكبرى قد بلغت 30٪ من مجموع المجندين في الفترة 1914- 1918 بينما شكل عدد الجرحى بنسبة 50٪ من المجندين الجزائريين الذين بلغ عددهم 5600 .[6]

عارض الشعب الجزائري ومعه تيارات الحركة الوطنية مرسوم 1912 بحيث شنت حملة ضد التجنيد في صحفها ونواديها ، وصل حد تحرِّيض الجزائريين على عدم الامتثال لأوامر الإدارة الاستعمارية والفرار من منازلهم. وقد استجاب الشباب الجزائري لنداءات الحركة الوطنية ، فلم يلتحق بالثكنات في باتنة إلا 25 شابا من مجموع 144 ، بينما امتنع 159 من مجموع 160 مسجلا في ندرومة. ولكن السلطات الاستعمارية صممت على التطبيق الشامل للقانون مباشرة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ؛ الامر الذي مكنها من تجنيد حوالي 4000 شاب جزائري في نهاية شهر أوت 1914 عملت على إعطائهم التدريب العسكري الأولي قبل أن يقحموا في حرب لا علاقة لهم فيها.[7]

الى دالك طالب رواد الحركة الوطنية ممثلين في الامير خالد بمطالبة فرنسا بإدخال إصلاحات واسعة في كل الميادين من شأنها تغيير الأوضاع المأساوية للشعب الجزائري ، و تحسين تمثيله في مختلف المجالس ، و إلغاء القوانين الخاصة.

مثل رفض الشعب الجزائري للتجنيد الاجباري في هجرة الجزائريين نحو البلاد العربية ، واندلاع عديد الانتفاضات و المقاومات التي عمت ارجاء الوطن منها مقاومة الهقار و الأوراس 1916 .[8]

ثانيا - المجهود الاقتصادي والمالي :

شارك الجزائريون في الحرب العالمية الاولى مجبرين فسخرت طاقتهم البشرية وإمكانياتهم المادية لخدمة المجهود الحربي. قامت فرنسا بتسخير الموارد الاقتصادية والقوى البشرية لخدمة المجهود الحربي.

مع كبت الحريات والنشاطات السياسية الوطنية و تشديد الخناق على الحركات الوطنية والأحزاب السياسية وحلها واعتقال زعمائها وزجهم في السجون والمعتقلات.

لم يقتصر المجهود الحربي للجزائريين خلال الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918 على الجانب البشري والاقتصادي فحسب بل تعداه إلى المجهود المالي. ولقد اعترف الساسة الفرنسيون أنفسهم من خلال التقارير التي كانوا يزودون بها حكومتهم خلال الحرب ، أن الجزائريين يعانون من فقر كبير ومحرومون من أبسط الضروريات. مع ذلك فقد فرضت عليهم ضرائب عديدة أثقلت كاهلها حتى وصل الأمر عند الكثير منهم إلى بيع ما تبقى لهم من أملاك

وأثاث لدفع ضرائب الحرب المسلطة عليهم.ولم يراع الفرنسيون أحوال الأهالي وفقرهم ، فكانت حصيلة الضرائب المباشرة وغير المباشرة التي جمعتها الإدارة الفرنسية تفوق الـ50 مليون فرنك فرنسي في كل سنة في الفترة 1913.1919. [9]

يتفق معظم الكتاب الفرنسيين على أن مشاركة الجزائريين في هذه الحرب كانت كبيرة، فالكاتب ميرسى يقول بآن الجزائريين قد لعبوا دورا عظيما في معارك شارل لوروا المارن، فيردان والصوم.

أما من الجانب العسكري فقدرت الاحصائيات لهذه المشاركة بحوالي 82751 جزائري في إطار الخدمة ألعسكرية يتفق معظم الكتاب الفرنسيين على أن مشاركة الجزائريين في هذه الحرب كانت كبيرة، أما عن عدد القتلى فقد قدرت نسبة المجندين لجزائريين المشاركين في الحرب بـ 30٪ بينما بلغ عدد الجرحى 50٪ ، ويقدر أندري نوشي عدد تضحيات البلاد الجزائرية في الميدان ب 28 ألف من ألمسلمين أي مجموع 47 ألف من 3280000 شخص جزائري. [10]

إلى جانب مشاركة الجنود الجزائريين نجد اليد العاملة ، حيث عملت فرنسا على اخلاء البلاد من الطاقات البشرية ، حيث جندت 270 ألف عامل، وبعودة جونار [11] الى الحكومة العامة بالجزائر أصدر أولى تعليماته القاضية بإمداد الوطن الأم فرنسا خلال عام 1918 بما لا يقل عن 50 ألف عامل.

ومنذ أن أعطى له حق الاشراف الرسمي لحكومة باريس على مصلحة عمال المستعمرات عام 1916م ,صار عدد المهاجرين في ارتفاع مستمر طيلة سنوات ألحرب ،وتبين في نهايتها أن المجموع الكلي لهذه المشاركة قد بلغ 270 ألف شخص عامل منهم 120 ألف رجل في التجهيزات ألعسكرية ومعامل الذخيرة وفي المواصلات والمناجم ,وحفر الخنادق بجبهات القتال .

أما من الناحية الاقتصادية فبعد إعلان التعبئة العامة في الجزائر يوم 02 أوت 1914م من أجل خوض الحرب , سمحت فرنسا باستغلال كل الثروات الموجودة بالجزائر حتى تساهم بتمويل الوطن الأم بالمواد الغذائية من حبوب وحمضيات ولحوم ،حتى تستطيع فرنسا مجابهة الحرب وأوضحت الإدارة الفرنسية بأن إمكانيات الجزائر الاقتصادية كبيرة ,يسمح لها أن تعتمد على مواردها حيث أعلنت في 22 جويلية 1918 م بأن الأوضاع الجديدة تضطرها للشراء من الجزائر مليون قنطار من ألشعير ،وبعد 20 يوم قررت شراء كل الكميات المتوفرة من القمح في الجزائر.

عرف عدد المهاجرين زيادة مستمرة طيلة سنوات ألحرب وتبين في نهايتها أن المجموع الكلي لهذه المشاركة قد بلغ 270 ألف شخص عامل منهم 120 ألف رجل في التجهيزات العسكرية ومعامل الذخيرة وفي المواصلات والمناجم وحفر الخنادق بجبهات القتال.

خلاصة القول إن التضحيات التي فرضت على الجزائريين في إطار المجهود الحربي فاقت كل التصورات باعتراف المؤرخين الفرنسيين. وكان من نتائج ذلك على المجتمع الجزائري أن تدهورت الأحوال المعيشية والصحية للجزائريين ، وتعرضوا للمجاعات من جراء الجفاف ، وارتفاع الأسعار ، وندرة المواد الزراعية ، وفقدانهم لجزء كبير من القوة البشرية الشابة التي جندتها فرنسا في سبيل حماية ترابها وشعبها من الاجتياح الألماني.وكان لهذه المرحلة الأليمة من تاريخ الشعب الجزائري أثرها العميق في تنمية الوعي الوطني وفي تحديد مسار النضال السياسي في مرحلة ما بعد الحرب .

ثالثا :اثار الحرب العالمية الأولى على الجزائريين:

لم تتمتع الجزائر بنظام مستعمرة بالمفهوم المتعارف عليه بينما كانت المستعمرات الاخرى خاضعة لوزارة ما وراء البحار كانت الجزائر خاضعة لوزارة الحربية بالنظر الى القوانين الفرنسية التي تضمنتها دساتير 1848و 1852.

لم تشر الى الجزائر كمستعمرة مع بقية ألمستعمرات وحتى مع انشاء وزارة الجزائر والمستعمرات من قبل نابليون ألثالث بقيت الجزائر تتمتع بوضع خاص عن بقية المستعمرات الاخرى .

راهنت فرنسا الاستعمارية على سياسة ألاستيطان حيث اعتبرتها مفتاح نجاحها بالاعتماد على هجرة كبيرة من اوربيين مغامرين ، من شداد الافاق مع اخضاع السكان الاصليين الى عديد المراسيم والقوانين الاستعمارية.

ادى هدا الوضع الى التفاف الشعب وراء زعماء المقاومة من طرقيين ووطنيين الى غاية اندلاع الحرب العالمية الاولى

أ – الاثار السياسية :

انتشرت مع الحرب العالمية الاولى في اوساط الشعب الجزائري حركة وطنية ذات طابع سياسي , شكلت بداية التعبير السياسي للوطنية الجزائرية حسب **مصطفى الاشرف**[12]،واعتبرها **ابو القاسم سعد الله** بداية عهد النهضة الجزائرية[13] ،كما رأى **اجيرون** انها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأزمة الاجتماعية التي حصلت في فرنسا في الفترة التي اعقبت نهاية الحرب .[14]

رافع **الامير خالد** عن حقوق الجزائريين تجاوز مطلب المساواة الى التنديد بالقمع الاستعماري ,ليكتسي نضاله بعدا وطنيا حقيقيا

شكل ميلاد نجم شمال افريقيا حدثا بارزا ومهما في تاريخ الجزائر ألسياسي مثل بدالك الاتجاه الثوري الذي اعتبر الحل الجدري للمعضلة الجزائرية .

لم يكن قرار حل النجم ليمنع الجزائريين من مواصلة نشاطهم , إلا ان دالك لم يكن بالأمر الهين مما استدعى ضرورة انشاء تنظيم جديد تكون له نفس الديناميكية التي يتمتع بها حزب سياسي وكان هدا مع ميلاد حزب الشعب الجزائري 11 مارس 1937.[15]

الى دالك برز تيار اصلاحي تزعمه مجموعة من علماء الدين بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين العام 1931، حملت على عاتقها محاربة سياسات فرنسا من تمسح وفرنسة وإدماج وتجنيس .

اما فريق النواب والمنتخبين اسسوا فدرالية نواب مسلمي الجزائر العام 1927 , برئاسة الدكتور ابن التهامي وبن جلول وغيرهم ، مطالبين بإدخال اصلاحات على سياسة فرنسا في اطار الارتباط الوثيق بفكرة الادماج .

ب - الاثار الاقتصادية

مثل الوضع الفلاحي بنسبة في تدهور الوضع الاقتصادي ، بسبب الانتاج الكارثي لسنوات 1919 و 1920وقد عبر عديد المؤرخين عن هذا الوضع اصدق تعبير بالاعتماد على الاحصائيات ومنهم ما اورده احدهم بقوله :

-ان زراعة الكروم قضت على زراعة الحبوب التي قضت على قطعان الماشية وأصبحت تهدد حتى الغابات وأشجار النخيل الصغيرة لقد لوثت الانهار اين ثم تفريغ الشوك والرعاع والبقايا-

ساهم هدا الوضع للأوربيين بتوحيد ملكية الاراضي والنزوح الى المدن ,ومنح للجزائريين القادمين من الريف البيوت القصديرية فازداد الوضع تدهورا لدرجة ان الجزائر وصفت بمملكة البؤس

طالت الازمة القطاع الصناعي فتضررت الصادرات المنجمية, وتراجعت اهم منتجاتها من فوسفاط ,وحديد ،كما ادى انهيار الاسعار في الاسواق العالمية الى تفاقم البطالة في القطاع الصناعي ، وقد وصفت هدا الوضع المأساوي جريدة وهران الصباح Oran Matin حيث تحدثت عن الحرفيين وعودة المهاجرين وقدوم جحافل العمال المهنيين وعمال البناء من إيطاليا ومن ألمغرب الى المدن ومع ما صاحبه من تدني للأجور .[16]

ج - الاثار الاجتماعية

اثر الوضع الديمغرافي في الحالة الاجتماعية التي عرفتها الجزائر غداة نهاية الحرب العالمية الأولى بالنظر الى انعكاسات الحرب على الاهالي الجزائريين ,خاصة مع ظاهرة المجاعة التي طالت البلاد مباشرة بعد نهاية الحرب مما دفع بعديد الجزائريين الى سلط طريق البحث عن لقمة ألعيش مما جعلهم ينعتون بقطاع طرق شرفاء حيث ظهر كل من بن زلماط في نواحي الاوراس،وسي الصغير الجيلالي بمنطقة معسكر الخ .[17]

اما بخصوص حرية المعتقد فلا نكاد نلمس لها اثر بالنسبة للديانة الاسلامية ,لم تنفع معها لا قانون 1905 حول فصل ألعبادات ولا مرسوم 1907 الذي اقر فصل الكنيسة عن الدولة ، حيث بقي الدين الاسلامي خاضعا لمجموعة من الاجراءات الادارية والقوانين الخاصة.

اما وضعية التعليم فيكاد يكون منعدما ، حيث لم تكن حرية التعليم ممنوحة للسكان للجزائريين ، عكس الاوربيين مما يظهر معاناة الجزائريين من سياسة فرنسا التجهيلية .[18]

الخاتمة :

تخلف الحروب الحسرة والحانين ،كما ان اثارها بالغة تصل الى الاجيال المستقبلية لقد عانت جل المستعمرات من ويلات الحرب ، ومنها الجزائر حيث جعلت الحرب الكونية الاولى من الجزائر حلقة اساسية للحرب, حيث ساهمت بكل امكانياتها المادية والبشرية، في تحديد نتيجتها فعمدت على فرض وجودها وإسماع كلمتها ، حتى وان كلفها دالك الكثير .

مثل الارتباط الوثيق بين الاقتصاد الفرنسي والجزائري ,عاملا اساسيا زاد من حدة تأثيرات ألحرب لدرجة كبيرة من دالك ان اكبر نسبة مما كان ينتج في الجزائر كان يصدر الى فرنسا فمثل هدا بإعصار كبير اصاب الجزائر عجزت من خلاله فرنسا عن تسيير شؤون الاهالي.

وعليه يمكن القول ان الحرب العالمية الاولى كانت مميزة الى شكل بعيد ,على تيارات الحركة الوطنية والأوساط السياسية الاستعمارية على حد سواء.

اثرت مظالم الاستعمار مع مجريات ألحرب وانعكاساتها سلبا على عموم الشعب الجزائري وفتحت اعينهم على حقيقة مشكلتهم الاساسية مع المستعمر ، مع ضرورة التأهب والاستعداد لمواجهة المستعمر والته عاجلا ام اجلا.

لم تكن الحركة الوطنية الجزائرية موحدة غداة ألحرب فاغلب الوطنيين كانوا مناوئين لفرنسا ، حيث رفضوا مساندة فرنسا في الحرب .

اجتماعيا بدا واضحا للعيان مدى التأثيرات الكبيرة التي تركتها الحرب العالمية الاولى على ألجزائريين فالأيام تشابهت، والمعاناة تفاقمت ، من ندرة للمواد الغذائية الاساسية الى تماطل عمليات التموين بسبب فرض بطاقات التموين ، مع ما شكله الوضع من ظهور اشكال ألمضاربة والانتهازية فانتشرت السوق السوداء ،فزاد استغلال ثروات الجزائر من قبل فرنسا كمجهود للحرب وبعدها في الاعمار فانعكس دالك سلبا على الجزائريين الدين وصل 80 **في المائة منهم عتبة الفقر ، فكانت الحرب ان ساهمت بشكل كبير في الرفع من وثيرة التطور لمختلف الازمات التي عرفتها الجزائر.**

الإحالات الهوامش

1- Kharchi Djamel, colonisation et politique, d'assimilation en Algérie, 1830 1962, casbah éditions, Alger, 2004, P 13.

2- Ageron Charles Robert ,Politiques coloniales aux Maghreb, P U F, Paris 1972, PP, 280 284

3- Noushi André, Naissance du Nationalisme Algérien, 1912 1954 édition de Minuit, Paris, 1962

4- Noushi André, Opcit.

5 – ينظر المرسوم الصادر في 17 جويلية ,1908, القاضي بإحصاء الشبان الجزائري البالغين 18 سنة، القادرين على الخدمة بعد إنتقائهم لإعطائهم دروس

6 – ابو القاسم سعد الله ,تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ,الجزء الثاني ,الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ,ط 3 ,الجزائر 1983

7 – ابو القاسم سعد الله, المرجع السابق.

8 – نفسه.

9 – Noushi André , L'Algérie Amère, 1914 1994, éditions de la maison des sciences, Paris, 1995, P 99

10 - Noushi André, Opcit

11 – شارل جونار سياسي فرنسي من عائلة برجوازية. عمل كوزير للأشغال العامة في حكومة كاسيير بيير, في سنة 1900 تم تعيينه في منصب الحاكم العام بالجزائر عمل كوزير خارجية لفرنسا سنة 1911 . وفي 1920 بعد الحرب العالمية ألأولى ترأس الحزب الجمهوري الديمقراطي بفرنسا.

12 – ينظر مصطفى الاشرف, الجزائر الامة والمجتمع ,ترجمة حنفي بن عيسى الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1983

13 – ينظر ابو القاسم سعد ألله تاريخ الحركة الوطنية ألجزائرية الجزء ألثاني الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط 3 الجزائر , 1983 .

14 - Ageron Charles Robert, Politiques coloniales aux Maghreb, P U F, Paris, 1972.

15 - قنانش محمد ,الحركة الاستقلالية في الجزائر بين ألحربين 1919 1939, المؤسسة الوطنية للكتاب ,الجزائر ,1982 , ص 31.

16- A W 0, dossier presse, Oran Matin, du 17 12 1933.

17 - Kaddache Mahfoudh , histoire du nationalisme Algérien ,2 éditions, SNED, Alger ,1981, p 487.

18 - حلوش عبد القادر, سياسة فرنسا التعليمية, في الجزائر دار الأمة, الجزائر 1999 , ص ص 65 63.